جليلة بنت مرة

قاتلة ومقتولة

اشتهرت نساء العرب بالفصاحة ، وبلاغة القول ، حتى لقد برز منهن من تقول الشعر ، وتحسن القول ، وتسوق الحكمة والقول ليصير مثلا ، أو حكمة خالدة تتناقلها الألسنة جيلا بعد جيل .

وأسوق هذه الحكاية لا لقصد الوقوف على المضمون ، وإنما لاستخلاص مأثور الكلام ، وفصيح القول ، وجمال العبارة .

قصة مقتل كليب

كليب بن ربيعة – اسمه وائل وكليب لقبه ، ولد سنة ٤٤٠ م ، ونشأ في حجر أبيه ، ودرب على الحرب ، ثم تولى رئاسة الجيش حتى قتله جساس بن مرة سنة ٤٩٤ م ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه وطاعته ، وغبر بذلك حيناً من دهره ، ثم دخله زهو شديد ، وبغى على قومه لما هو فيه من عزة وانقياد معدّ له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالاً له ، لا يختبئ أحد في مجلسه غيره ، ولا يغير إلا بإذنه ، ولا تورد إبل أحد ولا توقد مع ناره ، ولم يكن بكرى ولا تغلبي يجير رجلا ولا بعيراً أو يحمى إلا بأمره .

وكان يجير على الدهر فلا تخفر ذمته ، وكان يقول : وحش أرض في جواري فلا يهاج ! وكان هو الذي ينزل القوم منازلهم ويرحلهم ، ولا ينزلون ولا يرحلون إلاَّ بأمره ، وقد بلغ من عزته وبغيه أنه اتخذ جرو كلب ، فكان إذا نزل به كلأ قذف

obeikandl.com

ذلك الجر وفيه فيعوى ، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه ، وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يردها أحد إلاَّ بإذنه أو من آذن بحرب ، فضرب به المثل في العز فقيل :

أعز من كليب وائل ، وكان يحمى الصيد فيقول : صيد ناحية كذا وكذا في جواري فلا يصيد أحد منه شيئاً.

تزوج كليب بن ربيعة جليلة بنت مرة وكان لها عشرة إخوة أصغرهم يدعى "جساساً".

وحدث أن كليباً دخل على امرأته جليلة يوماً فقال لها: هل تعلمين على الأرض أمنع مني ذمة ؟ فسكتت، ثم أعاد عليها الثانية فسكتت، ثم أعاد عليها الثالثة فقالت: نعم، أخي جساس – وهو جساس بن مرة ، كان فارساً شهمًا أبيًا وكان يلقب الحامي الجار، المانع الذمار ، فسكت كليب ومضت مدة ، وبينما هي تغسل رأسه وتسرحه ذات يوم إذ قال لها :

من أعز وائل ؟ قالت: أخواي جساس وهمام. فنزع رأسه من يدها وخرج. ثم أن كليباً أعاد القول على امرأته فقال: من أعز وائل ؟ فقالت: أخواي ! فأضمرها في نفسه وأسرها وسكت .

وجاءت البسوس فنزلت في جوارهم وكان لها ناقة يقال لها سراب فمرت إبل لكليب بسراب وهي معقولة بفناء بيت البسوس، فنزعت الناقة عقالها واختلطت بإبل كليب الذي كان على حوض الماء ومعه قوسه وسهامه فلما رآها أنكرها ونزع سهماً رماها به فمزق ضرعها فنفرت وهي ترغوه وقد اختلط لبنها بدمها فلما رأتها البسوس صاحت: وأذلاه!!..وامجيراه!! وثارت ثائرة جساس فأسرع إلى فرس له فركبها وحمل معه سلاحه وتبعه أحد فتيان قومه وانطلق

الفتيان ثائرين حتى دخلوا على كليب فقال له جساس: يا أبا المحامد عمدت إلى ناقة جارتي فعقرتها فقال كليب: أكنت مانعي من أن أذود عن حمايَ! فاشتد الغضب بجساس وعطف عليه فرسه وطعنه برمحه وأقبل عمرو فطعنه أخرى وسقط كليب.

وقعت جليلة بنت مرة بين شقي الرحى، فلقد قتل أخوها جساس زوجها كليب بن ربيعة، وفي مأتم كليب اجتمع عدد من النسوة قلن لأخت كليب: رحّلي الجليلة - أي اطردِيها - عن مأتمك، فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب فقالت لها أخت كليب: يا هذه، أخرجي عن مأتمنا، فأنت أخت واتِرنا "الواتر - القاتل"، فخرجت جليلة وهي تجر أعطافها، ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب: رحلة المعتدي، وفراق الشامت! ويلُ غدًا لأل مرة، من الكرة بعد الكرة فبلغ قولها جليلة، فقالت: وكيف تشمت الحُرّة بهتك سترها، وترقُّب وتْرها! أسعد الله جد أختي، أفلا قالت: نفرة الحياء، وخوف الاعتداء!

ولما ذهبت إلى أبيها مرة قال لها: ما وراءك يا جليلة ؟

فقالت: ثكل العدد وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل ، وبين زين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد .

فقال لها : أو يكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات ؟

فقالت: أمنية مخدوع ورب الكعبة أبا لبُدْنِ تَدَعْ لك تغلب دم ربها.

ثم أنشأت تقول:

يا بنة الأقـــــــوام إن لمت فلا ... تعـــــجلي باللوم حتى تسـألي

فـــــإذا أنت تبينـــت الـــذي ... يوجـــب اللوم فلومي واعذلي

إن تكن أخت امرئٍ ليمـت علـى ... جـزعٍ منها عـليه فافـــعلي

جل عندي فعل جســـاس فيـا ... حســرتا عما انجلت أو تنجلـي

فعل جســـــاس على ضني به ... قاطعٌ ظـهـري ومدنٍ أجـــلي

لو بعـين فقئت عينٌ ســـــوى ... أختها وانفـقأت لم أحـفـــل

تحمل العـين قـذى العـــين كما ... تحـمل الأم أذى ما تـفـتـلي

إنني قـــاتلةٌ مـــقتولةٌ فـــلعل ... اللـــــه أن يرتـــاح لـــي

يا قـــــتيلاً قـوّض الدهر بـه ... سـقـف بيتي جمـيعاً من عل

ورماني فـقده من كـــــثبٍ ... رمي المصمى بـــه المستأصـل

هدم البيت الذي اســـــتحدثته ... وبدا في هـــــدم بيتي الأول

يا نســـائي دونكن الـيوم قـــد ... خصّني الدهر بـرزءٍ معضـل

مســـني فـقـد كليبٍ بلظّـــى ... مـن ورائي ولظّـى مسـتقبلي

ليس من يبكـي ليومـــين كمـن ... إنما يبكي ليـــوم ينجـــلي

درك الـثائر شـــــافيه وفـي ... دركي ثاري ثكل المـــثـكـل

لـــيتـــه كان دمي فاحـــــتلبوا ... درراً منه دماً مـن أكـحـــلي

وكان همام بن مرة ينادم المهلهل أخا كليب وعاقده ألا يكتمه شيئاً. فلما ظعن مره بأهله أرسل إلى ابنه همام فرسه مع جارية ، وأمره أن يظعن ويلحق بقومه. وكانا جالسين، فمر جساس يركض به فرسه مخرجاً فخذيه، فقال همام :

إن له لأمراً ، والله ما رأيته كاشفاً فخذيه قط في ركض ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى انتهت الجارية إليها ، وهما معتزلان في جانب الحي. فوثب همام إليها، فسارته أن جساساً قتل كليباً، وأن أباه قد ظعن مع قومه، فأخذ همام الفرس فقال له المهلهل : ما شأن الجارية والفرس ؟ وما بالك ؟

فقال: زعمت أن جساساً قتل كليباً.

فضحك المهلهل، وقال: همة أخيك أضعف ، أخوك أضيقُ استًا من ذلك فسكت. ثم أقبلا على شرابهما ، فجعل مهلهل يشرب شرب الآمن ، وهمام يشرب شرف الخائف ، ولم تلبث الخمر أن صرعت مهلهلاً ، فانسل همام وأتى قومه من بني شيبان ، وقد قوضوا الخيام ، وجمعوا الخيل والنعم ، ورحلوا حتى نزلوا بما يقال له النهى.

ورجع المهلهل إلى الحي سكران ، فرآهم يعقرون خيولهم ، ويكسرون رماحهم وسيوفهم ، فقال : ويحكم ما الذي دهاكم ؟ فلما أخبروه الخبر قال : لقد ذهبتم شر مذهب ، أتعقرون خيولكم حين احتجتم إليها ؟ وتكسرون سلاحكم حين افتقرتم إليه. فانتهوا عن ذلك، ورجع إلى النساء فنهاهن عن البكاء وقال: استبقين للبكاء. عيوناً تبكي إلى آخر الأبد.

وجاءت أشراف تغلب إلى مرَّة بن دُهل، وقالوا له: نعرِض عليكم خصالاً إمَّا أن تُحيي كليبًا، أو تدفع إلينا جسَّاسًا قاتل كليب فنقْتله، أو تدفع لنا .

ظهر للقوم أنَّ مرَّة حار في أمره، ولكنَّها خيارات تجْعل الحكيم حيران.

- ما بك يا سيِّد الحي؟

رفع الرَّجُل رأسه قائلاً: أمَّا أن أُحيي كليبًا فهذا لا يكون، وأمَّا أن أدفع إليْكم جسَّاسًا فإنَّه شابٌ طعن على عجل ورحَل، ولا أدْري في أيّ البلاد صار وظَعَن، وأمَّا أن أدفَعَ لكُم همَّامًا فإنَّه أبو عشرة وأخو عشرة وعمّ عشرة، وكلُّهم فرسان، فلن يسلِموه إليَّ فأدفعه إليْكم يُقْتل بجريرة غيره وبجناية سواه، وأمَّا أن أمكِّنكم من نفسي فما أنا إلاَّ رجُل لا تلبث الحرْب أن تبدأ فأكون أوَّل قتيل. ولكُم عندي خصلتان: أوَّلهما: أن تأخُذوا أحد أبنائي فتجرّوه بنسعة فتذْبحوه ذبح الجزور، وإلاَّ فالثَّانية: ألف ناقة سوداء المقْتل تضمَنُها بنو وائل.

- إنَّنا لم نأتِ لترذل بنيك أو لتسومنا اللَّبن.

وانصرفوا عنْه راغبين إلى أتُون حرْب، بدأت شرارتُها حكايةً استمرَّت .

ونستخلص من هذه القصة جميل الكلم ، وفصيح العبارة ، فهذه أخت كليب تقول :(رحلة المعتدي وفراق الشامت) قول موجز يحمل في طياته كثيرًا من المعنى جعله مثلا يضرب ويقال فيما يشبهه من مواقف .

وهذه جليلة بنت مرة تقول :

(وكيف تشمت الحُرّة بهتك سترها، وترقُب وتْرها! نفرة الحياء، وخوف الاعتداء!) جمل قصيرة موجزة فيها جمال التصوير وفيها من السجع ما يجعل التعبير في قمة عالية من الفصاحة ،ألا يعد ذلك مثلا؟

وتقول جليلة لأبيها - أيضا - مصورة ما آل إليه حال القوم بعد مقتل كليب:

ثكل العدد وحزن الأبد ، وفقد جليل ، وقتل أخ عن قليل ، وبين زين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد .

يا له من جمال ، ويا لها من رقة عبارة يزينها السجع غير المتكلف والتصوير الاستعاري الرائع .